﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما حثَّ على الاتّعاظ بما حلَّ في قومِ لوطٍ بيَّن أنَّ آثارَهم مشاهدةٌ لمن أتى بعدهم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

من حكمة الله أن جعل آثار الأقوام المعذّبين، راسيَة على الدّوام

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾: أَصْلُ (سبل): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذَلِكَ لامتِدادِهِ[1]. يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[2]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: الطَّريق.

2) ﴿مُّقِيمٍ﴾: أصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَبَ[3]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أي: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيه، وتُطْلَقُ بِمعنى الدَّوام على الشَّيء، كقولِهم: أقامَ الشَّيء بِمعنى أدامَهُ، مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][4]، والمُقامُ والمُقامَةُ: المَوضِعُ الَّذي تُقيم فيه، والمُقامَة، بِالضَّمِّ: الإقامة، والمَقامَة، بِالفَتْحِ: المَجْلِسُ والجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، والمُقيمُ: الشَّخْصُ المُسْتَقِرُّ في مكانِه غيرَ مُرْتَحِلٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).

وهو في الآية مُستعارٌ لآثارِ المَدينَةِ الباقيَةِ في المكانِ بتشبيهِه بالشَّخْصِ المُقيم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير والاعتبار بعاقبة الظّالمين الفجّار

يخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّ مدينةَ قَوم لوطٍ في طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: 137 - 138][2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ عطفِ آية ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ على السّابقة:

الانتفاع بآيات الله، ممكن لمن أرادَه وارتضاه

لمّا كانت الجهة الجامعة بين هذه الآية وسابقتِها هو الاعتبار بالآياتِ والانتفاع منها؛ ليزدجر الكافرون وليتذكّر المؤمنون، وكان من ضمن الآيات ما حدث لمدينة القوم المجرمين، جاءت الآية بطريق العطف بالواو، ليفيدَ العطفُ الترقّي في بيانِ قرب الانتفاع بالآيات، أي: إنَّ الاعتبار بها ممكنٌ بل في غاية السّهولةِ؛ لأنَّ آثارَها بسبيل ثابتٍ دائِم يسلكه النّاس، فهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشّام، فيرونها إذا مرّوا بها[3].

سبب مجيء التَّوكيد، في السّياق المجيد:

بيانُ ردِّ الغافلين عن غفلتِهم، وتنبيهُهم إلى ما هو أزكى لهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾، لمّا لم ينتفعِ المكذّبون من قريشٍ، ومَن جاء بعدَهم بهذه الآياتِ، وتمادوا في تكذيبِهم وإعراضِهم مع علمِهم بالمدينةِ المهلكةِ، ومرورِهم بها في طريقِهم أقيموا مقامَ المكذّب والحاكم بإنكار وجودِها، فجاءت الجملة مؤكَّدةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 433، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/540.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، ليردَّهم عن تماديهم في غفلتِهم وإعراضِهم عن الاعتبار والاتّعاظ بعذاب القومِ السابقين.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾:

التّعبير بالضّمير، للإيجاز في المعنى الكثير

يعود الضَّمير على مدينة قوم لوطٍ المهلكة، التي سبق ذكرها في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾[1]، فيعود الضمير على المدينة بما اتّصفت به، والتّقدير وإنَّ المدينةَ التي جعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيل لبسبيل مقيمٍ[2]، فأفاد التّعبير بالضّمير الإيجاز في الكلامِ.

معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿لَبِسَبِيلٖ﴾:

آثار عذاب قوم لوط، ظاهرة للعيان لمن يمرُّ بسبيلها

لمّا كانت الباء هنا على الملابسة، أفادت أنَّ المدينة المهلكة ملتبسةٌ بالسّبيل ملتصقةٌ به غيرَ مفارقةٍ له، للإشعار بأنَّ مَن يمرُّ بالطريق يراها بوضوح.

نكتةُ اختيارِ مفردةِ (سَبِيْلٍ):

الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى عنِ المارِّ به، هو السّبيل

عبِّرَ بالسبيل دون الطّريق؛ لأنَّ السّبيل هو الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى للمارَّة؛ لأنَّه يكون في موضعِ مجيئِهم وذهابِهم، ففيه امتدادٌ، ومنه السّابِلَةُ، وهي المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائيَةً وذاهِبَةً[3]، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ أوفقَ بالمقام للإيذانِ بوضوحِها، وأنَّهم يرونَها في مجيئِهم وذهابِهم.

دلالةُ اختيارِ مفردةِ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

مرور النّاس بمدينة قوم لوطٍ، دائم غير منقطع

لمّا وصفَ السبيل بالمقيم دلَّ على أنَّ السّبيل ثابتٌ دائمٌ، فلمّا كان ثابتًا أشعرَ بأنَّ مرورَ النّاسِ به دائمٌ غير منقطعٍ؛ للإشعار بأنّ رؤية المدينة أمرٌ مستمرٌّ، وأنَّه سهلٌ يسيرٌ.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/936، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/212.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

إثبات المدّعى على وجوب الاعتبار بمآلهم، بالدّليل العقليّ

شبَّه السّبيل الذي به آثار المدينة المهلكةِ الباقية بالشّخص الذي أقامَ في موضعٍ إقامَةً بحيث اتَّخَذَهُ وطَنًا له، فهوَ مُقيمٌ دائمٌ، ليكون الكلام على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة[1]، وبلاغة الاستعارة لإثباتِ المدّعى على سهولةِ رؤيةِ المدينةِ وآثارِها، ويلزمه وجوبُ الاعتبار بعذاب المكذبين المنحرفين، فينتفع بالرّؤية المؤمنون، ويعمى عنها الكافرون.

بلاغة الكناية في جملة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾:

الحثّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ، بما حلَّ بالقومِ المنحرفين

لمّا كان الإخبار عن المدينة المهلكة أنَّها بطريق واضحٍ بيّن دائم يسلكه النّاسُ، دلَّ بلازمِه على أنَّ النّاس يرون المدينة المهلكة أو أنه في إمكانِهم، ولمّا كان المارَّة يرون المدينة وآثارَها قصد به الانتقال إلى لازمِه، وهو تنبيه النّاس إلى وجوبِ الاعتبار بالمدينة المهلكة بما بقي من آثارِها[2]، والمعنى فاتَّعظوا بآثارها إذا مررتم بديارِهم؛ لأنَّها في طريقكم[3]، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتتابع اللّوازم، وأشعرَ التّعبير بلفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾ الحثَّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/196.

(3) بروسوي، روح البيان: 4/480.